الحلاج والحلم

صالح الرحال

١ ـ حامد[١]

في اللَوْحَةِ المرآةِ ألْقى ظلَّهُ
ومَشى، تُراودُهُ الهمومُ العائليَّةُ
والصعودُ المُستمرُّ
وساحةُ الشُهداءِ في أقصى المدينةِ
بَعْضُ أمتعةِ الجنودِ...
ومَضى يُدَغدغُ حُلْمَهُ الماسيَّ
في استشراقَةِ الصُوفيِّ
يَرقصُ منْ مُناجزَةٍ
أعدَّ لها العيونَ
وصمتَهُ المكبوتَ في حَجَرٍ
ويَسعى لابتلاعِ الريحِ
في قارورةٍ
في البدءِ كانَ هُوَ الفراغُ
على الفراغِ مُعلَّقٌ آمالَهُ القُصوى
وقاماتِ العبيدِ...

٢ ـ الحَلاّج

صَمْتٌ وَصَمْتٌ بَعْدَهُ
والعازفونَ عنِ الغِناءِ المُستعارِ
وما تبقَّى منْ نشيجِ الروحِ
في زِرياب[٢]
لا نغماً أعدَّ ولا مقاما...
تركَ الصعودَ مناحةَ الخَطَرِ البَهيِّ
وراحَ يبحثُ عنْ وراءٍ لا يراهُ
وعنْ يَسارٍ لَمَّهُ شَوْقاً وَهاما...
وسطا عليه العنكبوتُ
وفضَّهُ حُجُباً أمامَ الغَيْبِ
مِسْمارٌ يُخَلْخِلُهُ الفراغُ
وَخِرقَةٌ بَليتْ مَعالِمُها تماماً...
مَا ثَمَّ إلاَّ وَجهُكَ الأرضُ السماءُ
وهذه الأسماءُ منْ طينٍ
أُجَمِّعُها، فَيسقطُ بعضُها
لأنامَ في فَجَواتِ روحي
هَيْكلاً خَرِباً خُطاما...
أيضيقُ هذا الأُفقُ تابوتٌ
يُشَيِّعُهُ الظلامُ
وإِصْبَعٌ غَصَّتْ أمامَ العيْنِ
لافِتَةٌ تقولُ:
إلى الجحيمِ تقاطَروا
جِلْداً عِظاما...

٣ ـ حوار

سَيْفُهُ المُرَصَّعُ الثَّقيلْ
حزامُهُ الجميلْ
ووَرْدَةٌ على القَميصْ
مُغرَمٌ بالمرأةِ اللَّعُوبْ
والمُرْدِ الغلمانْ
كانَ يا ما كانْ...
ـ ادخُلْ خَيْمَتَهُ المُكَلَّلَهْ
بالعاجِ والزَبَرجَدِ
أهمّ بالدخول
لكنَّ حامدَ الوزيرْ
يُواصلُ الكلامْ:
ـ إيَّاكَ أنْ تقولَ لا.. مُلْتفتاً يَمينْ
أوْ ترفعَ النَظَرْ

---

١ ـ احمد: ابن العبّاس، الوزير في عهد الخليفة المُقتدر بالله العبّاسي، كان يعمل جابياً للضرائب قبل انْ يُستوزَر، وهو مَن شَهِد مُحاكمة الحلاّج في عام ٩٢٢م وقد كان له دورٌ في تصعيد المُحاكمة، حتى وصلَتْ الى إباحة دَم الحلاّج والحكم عليه بالموت.

٢ ـ زِرياب: موسيقى اندلسي شهير، اخذَ الغناء عن اسحق الموصلي، وزادَ وتراً خامساً على العود.

إيّاكَ يا حُسَيْن[1].. فالسيفُ مِنْ وَراءْ
إيّاكَ والكلامْ...
ـ إذَنْ يا سيِّدي الوزيرْ..
دعني أهيمُ في الفلاةْ
وأعفني من الدخولْ
ـ لا بُدَّ من دخولِكْ
لا بُدَّ من حِوارْ
كَيْ يعرفَ الجَميعْ
ويَنعمَ الجميعْ
بالعَدْلِ والأمانْ
دَخَلْتَ يا حلاّج.. وكانَ يا ما كانْ

٤ ـ مَحْكمة

في غرفةِ القاضي الرشيدِ
ومُلْصقاتٌ في فَضاءِ المَسْرحِ الدَمويِّ
منقوشٌ عليها:
«العدْلُ آساسٌ وَجَوْهَرْ»
وَتَربَّصَ الرُقباءُ والحُكماءُ
رابعُهم على البابِ الوَصيدِ
يَعدُّ أنفاسَ المُحاكَمِ
لاقفاً مِنْ ذاته وَجَعاً
ليقذفَهُ أمامَ المشهدِ الهزليِّ
يَرقصُ ثُمَّ يرقصُ
يَحتمي في صورةِ المرآةِ
يرنو مِنْ عَلٍ حِقداً أبَحَّ
ـ أأنتَ يا حلاّج مَنْ...؟
صَمْتٌ يُقطِّعُهُ الشَذَرْ
والمُفلسونَ إلى سَقَرْ
عبثاً يُحاولُ ذلكَ المَذبوحُ
قَبْلَ النُطقِ أنْ يُدلي،
يُناقشَ هؤلاءِ الرَهْطِ
في شكلِ الحِوارِ
وفي مَجازٍ أوَّلوهُ وصادروهُ
وغابَ عنهمْ ساحباً أُفُقاً
يُغازلُ نَجمتَيْنِ على انفرادِ

ـ وإذَنْ لَقَدْ هَتَكَتْكَ نفْسُكَ
أيُّها الهِرْطيقُ
قُلْ إنْ كان ثَمَّةَ ما يُقالُ، ادفَعْ
كلامَ الشاهدينَ عليْكَ
وانفِ المَهزلَهْ
صَمْتٌ شديدْ
الصَمْتُ هذا القاتلُ الجبَّارُ
يُعلنُ صِدْقَ هَذي المسألَهْ
يا أيُّها السَّجانُ نَفِّذْ
قَطْعَ المَكْرَ البَسوسَ[2] أمامَ أعيُنِهِمْ
وفُضَّ المُشكِلَهْ

٥ ـ الحُلُمْ

ويَعودُ يَدْخُلُ ذاتَهُ
ويغيبُ عَنْهُم
يَلْتقي في المَشْهَدِ الصوفيِّ
يَنْسَى قاعةَ العَسَسِ الرهيبةَ
وازْورارَ القَوْمِ
يَنْسى المُعْضلَهْ...
ويكونُ غَيْمٌ، ويكونُ صَحْوٌ
ويكونُ سِجْنٌ، ويكونُ مَوْتٌ
ثُمَّ يَخضَلُّ الشَجَرْ...
ويَسيرُ يَحملُ خَشْبَتَيْنِ
يسيرُ مُبتعداً إلى الأُفُقِ المُسَيْطِرِ
لمْ يَعُدْ جَسَداً تُحدِّدُهُ الجِهاتُ
بَلِ الجهاتُ تَحدَّدَتْ في خُطوتَيْهِ
وسارَ روحاً وانتَشَرْ...

سوريا

---

١ ـ الحُسين: ابن منصور، وهو اسم الحلاّج، والحلاّج لقبُه.

٢ ـ البَسوس: هي المرأة التي أشعلَت الحربَ، بين بني بَكْر وبني تغلب قرابة اربعين عاماً، انتقاماً لمقتلِ اخيها حسّان، وقد حملَتْ تلك الحربُ اسمَها.